لا تحزني

مجموعة قصصية قصيرة

بقلم
نجلاء العيسوي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اســم الكتاب : لا تحزني
المـــــــؤلف : نجلاء العيسوي
رقــم الإيداع : ٢٠١٨/٢٢٩٨٧م
الترقيم الدولي: ٣-٩٨-٠٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٨

مكتبة جزيرة الورد
القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

تقديم

إن الرؤية الأدبية والفكرية للإنسان إنما هي قطعة حية وقطاع حيوي من نفسه.. وما هي إلا أنثال وأمثال وأمشاج من وجوده ووجدانه ، تخرج منه تلقائية دون تكلف أو افتعال، أو صنعة أو تصنع.. تمامًا كما يخرج النبات من البذرة ، وكما يفوح العبير من الزهرة ويفيض الغرس بالظل والثمرة .

لذا فإن حياة الكاتب، الخاصة والعامة، وتقلباته في مصائر الأيام ، وتقلبات الأيام به، إنما ينعكس بشكل جلي أو خفي ، مهما لبس الكاتب من أقنعة، أو تستر خلف الرمز.. أو سافر إلى مجاهل التاريخ القديم أو الحديث.

وهذه المجموعة الأدبية التي بين أيدينا ، إنما تعكس هذه الحالة بوضوح وجلاء ، فما هي إلا منارات وأمارات ومعالم على الطريق.. خرجت من خلاصة تجارب شديدة الوطأة ، وشديدة الخصوصية.. وشديدة التميز ، عاشتها وعايشتها الأخت الفاضلة (نجلاء العيسوي).. (أم سارة) في عصر تكاد تتلاشى فيه معالم الخصوصية والتميز..

فأتبعت كاتبتنا سببًا.. وامتدت خطاها ، واتسعت رؤاها من استخلاص الدرس الإصلاحي كاملاً من «إبراهيم والنمرود» .. إلى «موسى وفرعون» .. إلى «أم موسى وأخته» وتدابير الملأ من بني إسرائيل .. في مواجهة الملأ الأعلى ، إلى مرين ابنة عمران.. وكانت «أم سارة» في ذلك على طريق الصادقين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾.

وكانت هذه الخلاصات.. هذه هي اللالئ التي استخرجتها من أصداف التاريخ، وجمعتها من شواطئ البحار، واقتنصتها من أعماق الظلمات.. خرجت على هيئة خواطر قصصية.. فيها من القصة روحها وخيوطها وعبرتها ، وفكرتها.. وبعضها كان هيئة خواطر شعرية .. فيها من الشعر رونقه وبريقه، ولغته وموسيقاه، وجماله ورقته.. وبعضها كان عبارة عهن حوريات ومقاربات نقاشية ، فيها من الحوار فكرته الدوارة، وذكاءه اللغوي ، واستبطانه العقلي المتجدد.

ولكن !!!

لأن الأخت «نجلاء العيسوي» أم سارة .. تعد نموذجًا قد لا يتكرر في التاريخ كثيرًا .. ولأنها ذات ثقافة أصيلة ومتماسكة ، ولأنها «درعمية التربية والدراسة» .. فإننا .. نهمس بين يدي تجاربها وكلماتها.

إن القصة السردية .. والحواريات الجدلية. والتجارب الشعرية، لكلٍ منها ضوابط .. ومعالم ومعايير وأصول .. كان يجب أن تراعى ، وصولاً إلى المعالجة الأمثل، والتجربة الأكمل والأفضل.. ولكنها من واقع مناقشة مطولة معها – آثرت أن تتلبس بروح المعلم ، وأن تنضح كلماتها وسطوها بروح التربية التي تجلو الخوف والحزن، وتزيل العجز والكسل.. وتذهب بالجبن والبخل ، وتقطع العذر على غلبة الدين وقهر الرجال.. فتوصلت من ذلك إلى قصد جيد، وحققت أقرب الغايتين.. غاية الدرس التربوي..، على حساب الدرس الأدبي الإبداعي.

ونحن بانتظار .. تجاربها الأخرى التي تحقق من خلالها الغاية الأبعد.. وهي غاية الإتقان الفني.. وهي على ذلك من القادرين المخلصين.. وسلام الله على من اتبع الهدى.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

د. محمود خليل
مدير عام إذاعة القرآن الكريم
وعضو اتحاد الكتاب بمصر
وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية


لا تحزني
مجموعة قصصية قصيرة

نجني

طلبت منه النجاة فنجاني.

وحفظني، واكرمني بجواره، فما أطيب جيرة الكريم.. هنالك حيث لاصخب ولا نصب ولا وصب.

حيث الهدوء والسكينة ومرافقة الطيبين.

بعدما كان فؤادي يتعصر ألما من رؤية الظالمين، يتنافسون في ظلم العبيد بين قاتل وذابح ومستحي للنساء .

خرابهم طال البيوت ، وإرهابهم هال القلوب، بل إن زوجي ضرب المثل الأعلى فيَّ، في الظلم والأذى.

وصرت وحدي في بيته أحمل إيمانا أكتمه بين أضلعي ....عرف قلبي أن له ربًا واحدًا مدبرا لأمره؛ ففوضت أمري إليه في كل شؤني فربط على قلبي وحفظ

على قلبي إيمانه ..

وكان قلبي يحب المؤمنين، ويتفتح لأهل الخير؛ حتى جعلني الله سببا لنجاة أشرف رجال عصري، وربيته في بيتي بعدما أشرق له قلبي واقشعر له إحساسي وألهمني عاطفة الأمومة له فلا حرمت أمه منه، ولا قدمته للذبح، بل ربيته عندها فهنئنا به نحن الاثنتين.

رجوت ذلك الظالم أن يترك لي أمر الصبي، فعلى غير عادة طاوعني في هذا الأمر!

نعم لم يتفتح قلبه لحب الصبي، وكيف له ذاك وهو منزوع العاطفة والألفه؟!

لم أحرم الصبي من أمه، لذلك لم يحرمني الله من صحبتهما في الجنة، حيث لاظلم ولا ظالمين، حيث السندس والروح والرياحين، والأنس بالصالحين المتعطرين بالمسك، والرضا ينير وجوهم.

وهنا.. أطمع أن يزوجني الله خيرا منه، فمثل ذاك المتغطرس

لا يتزوج الصالحات في الدنيا ولا في الآخرة.

فنجاني الله منه لما دعوته..

فنجاني.

نهر الفؤاد

نظرت بعيناي مودعة الوادي الأخضر بمناظره المبهجة، وبرائحة أزهاره العبقة، ونسائمه العليلة، ومحاصيله الوفيرة، وخيراته الكثيرة، وأعياده السعيدة مرتحلة إلى صحراء قفراء، نادرة الزرع يشح فيها الماء؛ لم تعرف يوما صوت جريان الأنهار، ولم تمتلئ وديانها يوما بالورود، ولم تنتشر فيها روائح الأزهار . ربما نزع روحي مع وداع الرياحين، و وداع الأمطار

ودعت الصديقات والخليلات، إلى حيث لا أهل ولا صديقات.

ربما انقبض قلب المرأة إذا أصابها ما أصابني من فراق الأحبة . لكنها !!!

هي الرحمة المُهداة قد استقبلتني، والكرم الوفير قد احتفى بقدومي؛ فرأيت في عينيه دفء الأهل، وتناولت

من يديه كرم المحبين؛ فسكنت روحه في روحي ؛ واطمئن عنده فؤادي ؛ وعوضتني حلاوة روحه عن حلاوة ثمار الوادي ، واشتممت منه عبق أزهار النيل ؛ فكنت ملك يمينه

ولم لا وقد أسرني بكرمه ؛ فاعتمدت عليه في حياتي، فقد اعتمدت على قوي أمين.

نعم حييت معه ما حييت، لم أجد إلا الطيبة تسكن فؤاده، والبسمة تعلو وجهه.

رزقني الله منه الولد، سعدنا به معا، وحزنا على فراقه معا ، فاجتمعنا على الفرح والحزن، حتى افترقنا بموته ورحيله ؛ فعادت الدنيا صحراء

جرداء لا أزهار ود، ولا أنهار حب، ولا رياحين حنان، ولا نهار سعادة، فلا حبيب ولا أنيس ولا جليس ولا ولد ؛ فأنا لست من هذا البلد.

اركب معنا

الأم : ولماذا كانت روح الشر فيك أقوى؟

ولماذا لم تستجب لدعوات السماء؟

ولماذا يا قلبي لم تلب النداء؟

ألم تك فيه السلامة والنجاة؟ !

الابن: نعم يا أمي لقد كانت فيها نجاتي وحياتي.

فيا ليتني يا أمي لبيت . فقد ناداني بكل قوة

وشعرت بقلبه يتمزق من انصرافي عنه، وتجاهلي إياه.

ورأيت عينيه يملؤها الدموع، وقلبه ينفطر من حسرته، مما رءاه من صدودي وجحودي.

الأم : ولم يا بني كل ذلك العناد؟ ألم يك أولى بك يا حبيبي

أن تلبي دعاءه وتستمع بقلبك وعقلك إلى نصيحته؟!

فيا ليتك يا غالي جاوبته.

الإبن. نعم يا أماه لقد وقف الغرور بيني وبين والدي. كما وقف بينك وبينه.

الأم : لا يا بني إن حبه لك شئ آخر.حبك يسري في دمائه، وروحك تسري بروحه، فكيف لهاتين الروحين أن تتفارقا؟

فقد حملك في ظهره قبل أن أحملك في بطني. وقد وضعك. قبل أن أضعك. وقد غزاك بحنانه. ورعايته قبل أن أغذيك من ثديي. فكيف غفلت عن أنك أحب الناس إليه؟ وأقر بهم إلى قلبه،

بل أنت الناس وأنت القلب بمن فيه وأنت أحب ما في الحياة له

فكيف صبر على فراقك؟ وكيف تحملت عيناه رحيلك؟

فيا شقاء قلبه على خزلانك لنفسك.

نعم يا أماه فقد خذلته وخزلت نفسي، بعد أن خذلته أنت. وخذله كثير من رفاقه وأقاربه.

لكن من يتحمل الخذلان بالصبر الجميل؟ ومن يقابل الغدر بالوفاء الطويل؟ لابد أن تتفجر له الأرض ينابيع تتناغم مع ماء السماء الغزير.. وسط صحراء شاسعة .صارت أمواجا متلاطمة

تحمل سفينة النجاة إلى بر الأمان.

الأم. نعم يا بني لقد فاتنا. أن نركب فيها.

وحرمتنا شقوتنا من السعادة عليها.

فيا ليتنا يا حبيبي ركبنا معا.

نعم يا ولدي، ليتنا ركبنا مع من أحبنا وأحب لنا السعادة والنجاة.

الإبن :نعم لقد ظننا أننا سننجو بأنفسنا بعدما عصينا ربنا وأغضبنا أحبتنا.

فقد نجا الله المخلصين ممن تفتحت قلوبهم وعقولهم لنصيحة الناصحين.

ونجا معهم كل وفي ومجيب.

وهلكنا وهلك المتنطعون.

ونجا أبي ومن معه من أوفياء صابرين .

أما أنا وانت يا أمي فقد نلنا جزاء المتمردين.

وهكذا نهاية كل مغرور.

وكل متكبر بقوته وماله وشبابه وقوته.

الأم: نعم يا سام، هلكت أنت، وهلكت أنا، وهلك كل مغرور، ولم ينج إلا من ظنناهم سفهاء ضعفاء.

إن القوة لابد لها من حق وعدل يبقياها على وجه الأرض .

فإذا ذهب الحق لحقت به القوة .وأصبحت الغلبة للمستضعفين الأتقياء. فتعسا لنا ولأمثالنا.

أركب معنا

(١)

الأم : ولماذا كانت روح الشر فيك أقوى؟

ولماذا لم تستجب لدعوات السماء؟

ولماذا يا قلبي لم تلب النداء؟

ألم تك فيه السلامة والنجاه؟ !

الإبن: نعم يا أمي لقد كانت فيها نجاتي وحياتي.

فيا ليتني يا أمي لبيت، فقد ناداني بكل قوة

وشعرت بقلبه يتمزق من انصرافي عنه وتجاهُلي إياه.

ورأيت عينيه تملؤها الدموع وقلبه ينفطر من حسرته مما رآه من صدودي وجحودي.

الأم : ولم يا بني كل ذلك العناد؟ ألم يك أولى بك يا حبيبي

أن تلبي دعاءه، وتستمع بقلبك وعقلك إلى نصيحته؟!

فيا ليتك يا غالي جاوبته.

الإبن : نعم يا أماه لقد وقف الغرور بيني وبين والدي كما وقف بينك وبينه.

الأم : لا يا بني إن حبه لك شئ آخر، حبك يسري في دمائه، وروحك تسري بروحه، فكيف لهاتين الروحين أن تتفارقا؟

فقد حملك في ظهره قبل أن أحملك في بطني، وقد وضعك قبل أن أضعك، وقد غذّاك بحنانه، ورعايته قبل أن أغذيك من ثديي؛ فكيف غفلت عن أنك أحب الناس إليه؟ وأقربهم إلى قلبه بل أنت الناس وأنت القلب بمن فيه، وأنت أحب ما في الحياة له، فكيف صبر على فراقك؟ وكيف تحملت عيناه رحيلك؟

فيا شقاء قلبه على خذلانك لنفسك.

نعم يا أماه فقد خذلته وخذلت نفسي بعد أن خذلته أنت.

(٢)

وخذله كثير من رفاقه وأقاربه.

لكن من يتحمل الخذلان بالصبر الجميل ومن يقابل الغدر بالوفاء النبيل، لابد أن تتفجر له الأرض ينابيع تتناغم مع ماء السماء الغزير.. وسط صحراء شاسعه صارت أمواجًا متلاطمة تحمل سفينة النجاة إلى بر الأمان.

الأم : نعم يا بني لقد فاتنا أن نركب فيها.

وحرمتنا شقوتنا من السعادة عليها، فيا ليتنا يا حبيبي ركبنا معا.

نعم يا ولدي ليتنا ركبنا مع من أحبنا، وأحب لنا السعادة والنجاة.

الإبن :نعم لقد ظننا أننا سننجو بأنفسنا بعدما عصينا ربنا وأغضبنا أحبتنا.

فقد نجا الله المخلصين ممن تفتحت قلوبهم وعقولهم لنصيحة الناصحين.

ونجا معهم كل وفيٍّ ومجيب.

وهلكنا وهلك المتنطعون.

ونجا أبي ومن معه من أوفياء صابرين .

أما أنا وأنت يا أمي فقد نلنا جزاء المتمردين.

وهكذا نهاية كل مغرور.

وكل متكبر بقوته وماله وشبابه وقوته.

الأم: نعم يا سام هلكت أنت، وهلكت أنا وهلك كل مغرور ولم ينج إلاّ من ظنناهم سفهاء ضعفاء، وإن القوة لابد لها من حق وعدل يبقياها على وجه الأرض .

فإذا ذهب الحق لحقت به القوة، وأصبحت الغلبة للمستضعفين الأتقياء فتعسا لنا ولأمثالنا.

إنها لصادقة

(١)

كلمة قالها في ختام حياته وكأنه كان يريد أن يرفعها شعارا من بعده؛ فلربما استشعر صعوبة تقبل الآخر إن هو تاب وأناب وترك الكفر ودخل في الاسلام محبا له راغبا فيه عما سواه ؛إذ كان قومي يهود.

لقد كانت نقطة البدء هى أصعب نقطة في حياتي ؛ حيث أبى قومي إلاّ البغض للإسلام بل والكيد للمسلمين؛ فدخلوا في حرب مع المسلمين كانت فيها مصارعهم ونهايتهم بين قتيل وأسير، وعلى أنقاض حرب ضارية رأيت بأم عيني، مصارع إخوة لي وذوي قربى ...فلم تكن المرارة لمجرد رؤيتهم صرعى بل لأن نهايتهم حانت وهم محادون الله ورسوله؛ فكانت الخسارة الكبرى أن خسروا الدنيا والآخرة.

عجز لساني عن نصحهم باتباع الدين الجديد؛إذ كانت فيه الهداية والرشاد، وانتظر قلبي أن يستضئ بالنور الجديد، وأن أسير في ركاب المؤمنين.

كانت رؤيتنا لمصارع قومنا بين قتيل وجريح ينشق لها القلب وينصدع لها الصدر؛ فأخذ أختي الجزع لهول ما رأت، أما أنا فلزمت الصمت وتجرعت الأسى على فتية ضاعت أرواحهم في محاربة الحق.

«أنزعت الرحمة من قلبك أن تمر بمرأتين صرعى قومهما؟!»

تعجبت من رحمته بنا وشفقته علينا !

أو تصل رحمته بنا ونحن من نساء قبيلة معادية، وشفقته علينا أن يقدر شعور إمرأة أسيرة؟!

هل من تقدير لمشاعر إمرأة في بطن حرب ضارية؟!

رحمة مهداة أنصبت علينا ... ونور مبين التف حولنا .... مواساة وتهدئة. لقد فتح لنا بابا واسعا لحياة جديدة ملؤها الهدوء والرضا.

منزلة جديدة أعتليتها، نقلتني من قاع الكفر إلى قمة الحياة الإيمانية!

كانت معي أخت لكن أصابها الجزع والفزع؛ إذ كانت معادية للمؤمنين فأمر بها فأبعدها عنه لما أصابها من كراهية للمؤمنين.

لقد رأى في موقفي صمودا وتجلدا في النائبة إذ لم أبد شديد الفزع على قتلى قومي إذ آثروا الكفر على الايمان.

لقد كنت أكثر النساء بركة على أهلي إذ أعتق أسراهم، وأحسن إليهم.

أما أنا فقد خيرني بين الرجوع إلى قومي وبين البقاء في الحياة الجديدة فاخترت حياة الايمان.

(٢)

اختارني القائد الحكيم زوجة له؛ لقد دلته حكمته على الزواج مني، فحقق بذلك مكاسب في طريق دعوته، وحياته وحياتي.

فهل سيتقبلني أفراد المجتمع الجديد عضوًا جديدًا فيه ؟!

أم ستسود بيننا فوارق عرقية أو قبلية؟!

لقد كانت آداب الدين الجديد وروحانيته وأخلاقه تدعو إلى المودة والتآلف والانصهار بين جميع أفراد المجتمع الإيماني، وتحضهم على الأخوة والمواساة بل تزرع بينهم روح العطاء والإيثار.

لقد كان لزوجي عدة زوجات كما هو الحال عند أشراف العرب، وقد استطاع بحكمته وعقله وعدله ومودته ورحمته ـ بنا جميعا- أن يؤلف بيننا ـ برحمة الله- وقد أذاب بقدرته الفوارق بيننا وجعل من المنزلة الإيمانية المنزلة العليا بين منازل المؤمنين.

وأنه بالحب نرتقي درجات الجنان العالية ومن غيره لا نستطيع.

لم نترك الغيرة تقطع حبل مودتنا، ولم نسمح لها أن تفسد علينا حياتنا، بل قد زرع الحب والأخوة والإيثار بين جميع طوائف المجتمع.

فعشت معه حياتي كلها سعيدة مطمئنة تعلونا الابتسامات الحانية، بل قد تسري عنا بعض مواقف الغيرة البسيطة التي يتبدى منها شعورنا بالمودة والوئام.

اعتلت فيها كلماته بالإشادة بي وبأصولي إذ كنت ذات نسب أصيل، ورفيع المنزلة الإيمانية، تمتد أصولي إلى موسى وهارون عليهما السلام، ومن مثلهما في الجهاد والمجاهدة والصبر والمصابرة.

جاهدت معه ،وسرت في طريق الدعوة، ابتسمنا كثيرا، وربما بكينا لفراق أحبتنا، لكنه عاش معي يرفع رأسي ويشيد بموقفي إذ فارقت الكفر إلى الإيمان.

وظل حياته كذلك محترما لكل زوجة من زوجاته في مودة وإعزاز..حتى جاء موعد رحيل الرحمة المهداة ظل ينافح عني ويشهد لي بالايمان

فلربما كان هو أكثر من شهد لي لأنه كان ذو صلة بالسماء؛ فقالها يشهد لي وهو يفارق الحياة «والله إنها لصادقة» .

فضحكت

(١)

قد تشتاق يوماً إلى أن ترسم إبتسامة علي وجهك ، أوتحن إلى من يرسل لك ابتسامة من شفتيه . فتلك الإبتسامات تفتح أبواباً مغلقه ، وتقرب أحلاماً بعيدة .

هناك من ضحكت من قلبها ، فبُشرت من ربها . ضحكت فى وجه المحنة ، فاستبشرت فى عز الأزمة ، فكانت ضحكتها العذبة سبباً فى بُشراها بما تتمنى !!

ضحكت فرحاً فبُشرت ولداً . منذ شبابى ما عرفت غيره ، كان لى نعم الزوج وكنت له نعم الرفيق وعشنا معاً يجمعنا أشرف ما فى الوجود ... لم يك على وجه الأرض من مؤمن إلا هو وأنا ... تزكنا قريتنا وأهلنا ورحلنا معاً نطوى إيماننا بين أضلعنا ؛ فطمع فى جمالى

من طمع، فحفطتنى سابقات حسناته مع ربه ، وجميل معروفه مع الخلق ؛ فلم يخزه الله فى زوجه .فارسل فى طلبى فأوصانى زوجى أن أخبره بأنه أخي، كيما يقتله من أجل الحصول على الزوج : لامؤمن علي وجه الأرض إلا أنا وأنت وأخشى أن يعتدى الملك الظالم على أحدنا فلا يستطيع الأخر أن يكمل رسالته بمفرده.

سارة : وماذا يريد منا ذاك الظالم ؟!

الزوج :إنه ينتهك حرمات الناس ويأخذ كل زوجه مليحة، ويقتل زوجها فإذا خَلُصَ إليك فجاهد به ولسوف ينجيك الله منه.

سارة :وهل ستتركنى له ؟ !!

الزوج : لابل سأفوض أمرى إلى من هو أقوى منى ومنك . الله . يتولى أمرى وأمرك فلا تنزعجى واطمئنى، فلطالما نجانى ممن هو أظلم منه وأطغى.

سارة : أو أنا أيضاً ينجينى ؟ !

الزوج : نعم . أنت نعم الزوجة المخلصة المؤمنة . أعمى الطمع أعين الملك فتطلع إلى كل امرأة يسمع بجمالها، فهمّ أن يتناول **سارة**، وغلق الأبواب وسرح الحراس ؛ فتصدع قلب سارة من هول المصيبة ، ولم يك لها من ملجأ ولا معين سوى الله ـ تبارك وتعالى ـ فلما اشتد كربُها تذكرت قدرة الله ولطفه بإبراهيم إذ نجاه من النار إذ عاش فيها أربعين يوماً .

(٢)

هى أطيب أيام حياته!

دعت سارة ربها بقلب يملؤه الرجاء بأن ينجيها من الملك الظالم فاستجاب لها من فورها وأخذ الملك وصُرِعَ فعلم أن ما أَلَمّ به بسبب دعائها لله، فلم يجد خلاصًا إلا أن يستسمحها ولم يجد خلاص من كربتها ... إلا أن تسامحه على على أن يطلق سراحها ... بالفعل زال ما ألم به، إلا أن الطمع ملأ قلبه فرجع يراودنى عن نفسى فاشتد ما بى من الكرب ، فتذكرت كيف نجا من النمرود زوجى، وحدثتني نفسى بأن الله قادر على إهلاكه ، فأصابه صرع أشد ما كان عليه في المرة الأولى ؛ فعاد يستسمحني فعدت وسامحته علي أن يطلق سراحى ولايؤذنى ـ أعطى الله للملك فرصة ثانية لعله يتذكر أو يخشى ، فلم يعد إلى الحق وتمادى فى باطله فاستنصرت ربى واستقويت بقوته ولبسنى الهم والغم أين أنت يا إبراهيم ألا ترانى أوتسمعنى ؟

أوما تشعر بما أنا فيه من الكرب أو هكذا يترك الزوج زوجته ؟!

هكذا أحاط الكرب بسارة من كل ناحية سمعت سارة بصوت يهمس فى أذنيها .

«لا لست وحدك، إبراهيم قريب منك يصلى من أجلك هذه محنتك أكبرمنه ومنك، وقد فوض ملك الملوك فى أمر الملك، وها أنا ذا أُبشرك بغلام من نسلك يكون هلاك الفرعون على يده».

بُعثت روح سارة من جديد ، سبحان الله، هو القادر على إهلاك الطاغية

هل سيرزقنى الله بالولد ؟! وكيف له أن يهلك الفرعون الطاغية؟

الملك : إذهبى أيتها المرأة المحصنة ، وخذى معك هاجر الممتنعة، ليس لي حاجة بكما إذهبا إلى أخيكم المتبتل وعيشوا معاً فأنتم إخوة فى التحصن والعفاف.

رجعت سارة لزوجها ، ولم ينتظر أن تقص عليه ما حدث فقد كان يسمعها ويراها.

بشرته سارة بأن الله قد أخزى الكافر وأنجى هاجر.

العودة إلى الفردوس

(١)

كل شئ عندكم أحزنني، كل ما عندكم أفزعني....لا راحة..لا طمأنينة..لا هدوء ...لا سكينة....لا حب بينكم ولا وفاء....لا أخوة تجمعكم ولا إخاء...لا عدل ...لا رحمة...لا عطف. .لا حنان...

هكذا شعرت الأم الكبرى وقد همت بالرجوع إلى موطنها الأصلي، واستعدت للرحيل فاستعطفها زوجها أن تستمر معه وأن تتحمل أخطاء من حولها ورزاياهم، فهل يا ترى ستطاوعه أم ستتركه وترحل؟!

إرجعي إلى .. مالك تهرولين؟!

مالي أراك تبكين ؟!

إلى أين انت راحلة؟!

أوتتركيني هنا وحدي وترحلين؟!

ردت عليه حورية والحزن يفطر قلبها. ...نعم..ولم لا أهرول؟! وكيف لا أسرع؟! وقد رأيت منهم ما رأيت وعانيت مما عانيت؟!

فيرد زوجها يستعطفها:

لم تهربين من حياتك وحياتي؟! ألم نأت إلى هنا معا؟! وتعاهدنا على أن نعيش سويا.أحمل همك وتحملين هم أبنائنا؟!

حورية.نعم عاهدتك وعاهدتني لكن قلبي يتمزق وأنا أراك لا تستطيع أن تفي بوعدك لي؛ فقررت الرجوع إلى موطني فلعلي أجد هناك من يفتح لي الباب.

الزوج:ولم تتركيني يا حبيبتي ؟! ألم أوفر لك مسكنا آمنا وعيشة هادئة؟!...ألم يرزقنا الله بالبنين والبنات ؟!

حورية ترد وقد غمرها الألم.

نعم وفرت والله قد رزق.

زوجها:إذاً فَلِمَ تتركيني وحدي في هذه الحياة القاسية؟!

وكيف يطاوعك قلبك على أن تتركيني وحدي في هذه الحياة القاسية؟! هل أعيش بلا جليس ولا أنيس؟ ! أعلى هذا تعاهدنا أم على هذا تواعدنا؟!

(٢)

حورية:قد عاهدتك على المودة والرحمة ولم نتعاهد على الاغتراب والعذاب.

إغتراب وعذاب! من أين تأتينا الغربة؟! وكيف يصيبنا العذاب لماذا تشعرين بالغربة وأنا بجوارك؟!

نعم أنت بجواري لكني شعرت بالغربة وأنا أعيش مع أناس وكأنهم لا يعرفون من أنا .. ومن أكون. ..لا يعرفون أصولي وجذوري....ما تاريخي...ما حضارتي...الضاربة في أعماق الجنة.

يتجاهلون تاريخ ميلادي.. يزورون أصلي...مم خلقت ومن أين نشأت.

يسخرون -يا عزيزي -في جهل من أعظم مهمة على وجه الأرض يلقون بتبعات جهلهم وأحمال أوزارهم، فإن أنت رجعت إليهم فسألهم من أنا ومن أكون؟

راجعة من حيث أتيت، بل حيث خلقت، فقد آزرتهم على ظلمي وعاونتهم على معاداتي¡.

يصدم الزوج الحبيب مما يسمع من اتهام زوجته حبيبته له بظلمه لها. وكيف له ذلك وهي نور حياته ونسائم دنيته؟ !

أأظلمك يا حبيبتي وأنت لي منيت النفس وروح الفؤاد؟!!!

حورية: نعم لقد عاونتهم على ظلمي حينما سكت عن الدفاع عني ورضيت بما سمعت منهم في حقي؛ فأنا لم أخرجك من النعيم ولم أك سبباً في إبعادك عن السعادة؛ ولم أخلق أنا من ضلع أعوج في الخلق، ولم يكن أعوجاج ضلعك عن عيب في الخلقة، فإنهم لا يدركون أن إنحناءات ضلعك لحماية قلبك، فلولا إنحناءات الضلع لتهددت حياتك وحياتهم، فكنت لهم كالضلع الذي ينحني على صاحبة ليحمية من ضربات الضاربين وطعنات الطاعنين.

الزوج يواسي زوجته: نعم يا حوريتي لقد خلقتِ من ضلعي الذي يحمي قلبي؛ فأنت جزء من حمايتي وكذلك كل أنثى هي جزء من حماية زوجها وأهلها.

حورية : فمن إذًا أضلهم عن ودادي، وما الذي حرضهم على ازدرائي؟!؟!

(٣)

إنه الكبر والتعالي يا حورية أنساهم الزمن حتى احترامي وتوقيري..أنساهم أمهم وأباهم ..أنساهم أصولهم وجذورهم.

أما أنا فلم ولن أنساك لن أنسي أول أنثى رأيتها في حياتي لم أرى أمي أو أبي لم يك لي أخ أو أخت أو عائلة.فكنت لي بكل هؤلاء

كنت الزوج..والأم..والأب.الأخ .والأخت.ورزقني الله منك الولد....فتحت عيناي ذات صباح فوجدتك بجواري تبتسمين لي...وجهك صبوح وفيك أجمل روح من ضلعي الذي ينعطف على قلبي خلقتِ..ومن نسيم الجنة تنفستِ......

ضحكت حورية وملأت وجهها ابتسامة مشرقة، وتلألأت عيناها وهي تردد...نعم في الجنة خلقت لك وتزوجتك، ومن أنهارها شربت، وعلى سندسها بقدمي مشيت ومن ثمارها الغضة تغذيت. وفي هوائها العليل تنفست....فلا هم أصابني ولا أحزان.لا نصب إعتراني ولا نسيان، وكنت أنت لي الأخ والأب والزوج والحبيب هيا اتركهم وتعالى معي ...إنهم لا يقدرونك، ولا يعرفون قيمتك يا من خلقه الله بيده وسخر له ما في السموات والأرض .

الزوج : نعم يا حورية نحن خلقنا في الجنة ولكن لا تنسي أنهم أبناءنا قد رأيتهم في عالم الذر قبل أن يخلقوا فأحببتهم وفرحت لمعافاتهم وبكيت لمصابهم..ودعوة لهم بالعافية والسلامة وأعطيتهم من عمري سنين. أنا وأنت خلقنا في الجنة ولكن لا تنسي أنهم خلقوا على الأرض...بشر يتنازعون أرزاقهم..ويتناحرون على أموالهم....فأنى لهم أنهار الجنة الطيبة ؟! كفاهم عذاب ما هم فيه من التلوث والفقر والجوع والحروب والتشرد في البلاد ..لابد لي أن أظل معهم أنصحهم وأزود عنهم لابد لهم من قلب كبير يحبهم ويخلص في نصيحتهم....

حورية : وكيف يتاصحون وهم في غمرة من حب الدنيا؟! يقتل بعضهم بعضا من أجل حفنة من تراب قذر.

أنا قد جرح فؤادي من قسوة قلوبهم، وتصدع صدري من مجادلتهم..

الزوج:لا تتركيني وحدي يا حبيبتي ورفيفة دربي.

(٤)

حورية لا أنا عائدة إلى الفردوس لعلي أجد من يفتح لي الباب.

وإذا ظللت معهم فعرفهم من أنا ومن أكون.

لن يضيعنا

(١)

تركها ورضيعها وأدار ظهره لها وأسرع راجعا من حيث أتو؛ فنزعت الروح من صدرها وأظلمت الحياة من حولها فتتبعته تسأل وتتعجب...

أهنا يترك الحبيب حبيبه؟!

أوتأتي بي إلى هذه الصحراء الشاسعة مع رضيعي لتتركنا ؟! أبذنب أذنبته؟! أم بجرم اقترفته؟!

رد عليها زوجها المحب مشفقا عليها:

لا .لم ولن أتخلى عنك فلم تعهديني يوما قاليًا لك ولا كارهًا.

***

رجعت الحيرة إلى قلب الأم المسكينة تذوب في أسئلة لا تجد لها جوابًا .

هرول الزوج مسرعا تاركا زوجته ورضيعها الوحيد على زراعيها.

هرولت الزوجة وراءه تستعطفه ألا يتركها ورضيعها في هذه الصحراء الشاسعة ..لكنه سرعان ما اختفى تاركا لها بعض الماء والزاد.

كان قلب الزوج يعتصر على زوجته ووليده الوحيد الذي ظل سنين عددا ينتظر قدومه، لكن من جهة أخرى كان مملوءًا باليقين بأن من أمره بذلك إنما أمره لحكمه، وأنه وحده قادر على حفظ الزوجة والرضيع.

إنقطع أملها في اللحاق بزوجها أو حتى أن يجيب عن أسئلتها.

تلفتت الزوجة حولها، لم تر عيناها سوى صحراء مترامية ...وجبال راسية....شمس حامية....ورمال ساخنة....

وفجأة قطع صوت الرضيع لهيب الصمت بصوت بكاءه الرقيق، ليذكر الأم أنه هنا.. وليد رضيع يستمد حياته من حياة أمه فلابد من الاعتناء به ليرضع ويشعر بالأمان... لكن هيهات ذلك وهي نفسها لا تشعر بالأمان.

بل لا ينقصها في الحياة سوى أن تشعر بالأمن الأمان.

ضمته بين زراعيها.....قربته من صدرها أرضعته من حنانها.....جاهدة. تحاول إشعاره بالحنان والأمان والطمأنينة...ارضع يا صغيري فلا نعلم ما حاكته أقدار السماء.....فانه لخير وإن كان ظاهره الشر....وإنه لحلو وإن ظننته مرًا.

أوهان عليك أن تتركني في مثل هذه الصحراء وحيدة؟! ....اهكذا تركت صغيرك الذي حلمت به من عمرك سنين؟!

ألم تتزوجني أملاً في إنجابه؟!

أهكذا تتركني بلا أنيس أو جليس ؟!

لماذا حرمتني من نور عينيك....ودفء يديك. .. وعبق عبيرك.....وحرمتني حتى من سماع قرع نعالك تسير في الأرض، فأشعر معها بالأمان على الأرض والأنس في الحياة؟!

أخذت هاجر تشرب الماء وتأكل من التمر حتى نفدا.

أصاب هاجر الجوع والعطش، وأصاب صغيرها الهزال لما وجده من جفاف لبن الأم

***

(٢)

... .إزداد الكرب على هاجر كلما رأت رضيعها يتلوى من الجوع والعطش فتلفتت حولها أملاً في أن تجد من يغيثها دون جدوى...

بحثت وبحثت عن مصدر للماء فلم تجد.......فصعدت بين الجبال وهبطت دون فائدة، كلما مر بها الوقت ازاداد العطش وقرب رضيعها على الهلاك....لم يعرف اليأس إلى قلب هاجر سبيلا.....لم ولن تتوانى عن البحث والهرولة...وازدادت في السعي بين الجبال بهمة عالية وأمل لا ينقطع في العلي القدير، اشتد الجوع والعطش بصغيرها فتوجهت بناظريها إلى السماء. فجاءها المدد من الأرض، ها هو تحت أقدام صغيرها ملك يفجر عين ماء عذب.......كادت أن تغرق المكان من حولها لولا أن أمرتها فأتمرت بأمرها.

ومن الماء يخلق كل حيّ

وبالماء يبق الحي حيًا.

لم ترتو هاجر وصغيرها وحدهما، بل جاءت الطيور المغردة تشرب وتغرد وتحوم حول المكان، فآنست القوافل عين الماء وما حولها من طيور وخضرة نمت ..آنس المكان بعد أن كان مقفرا...واستعذب بعد أن كان موحشا.

رجع الزوج الحبيب والاب الرفيق يتفقد حال زوجته ورضيعها فوجدها على أحسن ما يكون، لولا عتاب جرى على لسان المحب فطبيعة البشر تأبى إلاّ وصال الأحبة.

أهكذا تركتنا؟.. أهنت عليك؟ وهان عليك صغيرنا الذي طالما تمنيته من الله؟!

لم أتركك..ولم أتخل عنك، فهذه محنتك..وذاك ابتلاؤكِ... اجتزتيه وحدك ونجحتِ فيه بتقدير العلي القدير...فلم يصبك يأس ولا ضجر......

ولم يدخل في قلبك شك ولا ملل.....فنلتِ جزاء صبرك وعدم يأسك

إن كل خطوة خطوتها ستخطوها الأمه كلها من بعدك رجالا ونساء ...صغيرًا وكبيرًا......غنيًا وفقيرًا.........

وأسستِ باجتهادك ركنا أصيلاً من أركان الدين.

ألا يكفيك ذاك شرفا يا عزيزتي؟!

بلى يكفيني وسأستزيد.

لا تخافي

(١)

حملته بين أضلعها..وضمته...وضعت أذنيه بحوار قلبها ..وأخذت تحدثه برفق وهمس. ...نعم أنا أمك...وأنت ولدي......أنت وحدك تسمعني..وأنا وحدي أفهمك...لم ولن أتركك ولن أتخلى عن مسؤليتك.

فهم وليدها....فهمس يتسائل:

ألم تلقني في التنور من قبل؟!

الأم: نعم ألقيتك في التنور من شدة خوفي عليك....خفت عليك من ذبح السكين.. .وكان ذبحًا أكيدًا....لم أمهل وقتا لأخبئك بين أضلعي ...ولو استطعت لفعلت...

الوليد: ولكنك ألقيتني في اليم بعد أن أرضعتني وعودتني على حنانك..ودفء أحضانك، فقذفتيني في التابوت وألقيتني في اليم!!!! أي عقل أشار عليك بهذا ؟! وأي قلب طاوعك؟! أويقذف المحب حبيبه في اليم؟! فترميه أمواج وتتلقفه أخرى ثم تلقيه؟!!!

الأم: نعم يا صغيري لقد قذفتك في التابوت ثم قذفتك في اليم بعد أن أرضعتك من لبني وغذيتك بحناني؛ ولم يك هذا بختياري ..أو تفكيري أو اجتهادي..ولم يك ذاك تخليا عنك أو مجافاة لك؛ بل كان وحيا نزل في شأن نجاتك، فأمرني فانصعت لأوامره وأنا على يقين من نجاتك من الهلاك.....

يتعجب وليدها مما سمع من أمر الوحي ويسأل أمه.

أو نزل عليك الوحي يا أماه؟!

الأم : نعم لقد نزل الوحي في شأنك يا حبيبي.

يرجع الوليد للتعجب ويسألها، وبماذا نزل؟!

تجيبه أمه... لقد ألقى الله في قلبي ألا أخاف عليك من الذبح وألا أحزن لفراقك ووعدني أن الله سيردك لي، وليس هذا فقط بل بشرني بأن لك أمرًا عظيمًا، وأنك ستكون نبي هذه الأمه، وسيكون هلاك فرعون على يديك.. بعدما ذبح من بني إسرائيل ما ذبح؛ مخافة أن يولد من يكون هلاك فرعون على يديه....

الوليد.: وكيف نجاني الله منهم يا أماه؟!

عندما وضعتك كان فرعون يذبح كل مولود ذكر لبني إسرائيل، وقد أوصى القابلات بإحضار المواليد الذكور، فبعدما وضعتك ألقى الله محبتك في قلب قابلتك، محبتك والاشفاق عليك؛ فلم تخبر عنك العسكر.

ومع تربصهم لبيوت بني إسرائيل وخاصة ما كان فيها إمرأة حامل ...

(٢)

فقد دخلوا البيت فجأة وفتشوا البيت عن المولود فلم أجد مكانًا أخبئك فيه إلا التنور، فبدون وعي أو تفكير ألقيتك فيه، وقد حفظك الله ولم يصبك بضر.

الوليد: ولم يذبح الولدان عندكم يا أماه؟!

الام : يا بني هذا أمر شرحه يطول، عندما تكبر ستفهم كل شئ، لماذا حكمت على نفسك بعدم الرضاع ورفضت كل مرضعة قدمت لبنها لك؟!

الوليد : يا أمي إنه ليس بملكي، وكأن الوحي قد أمرني بعدم الرضاع، فكان لبنهن مثل العلقم في حلقي، وكان صدرهن مثل الشوك في جسدي.

ولكن بعدما جئتِ أنت... عرفتك من حلاوة لبنك ودفء حنانك، فعرفتك من طيب رائحتك وعبق عبيرك؛ فشعرت معك بالحنان وأحسست بالأمان..

لكن من يا أمي تلك الفتاة التي كانت تتبع أثري وتتحسس أخباري من بعيد؟! فقد شعرت بأنفاسها تتلهفني؟ !

إنها يا ولدي أختك جاءت من نفس البطن التي جئت منها ورضعت من الثدي الذي منه رضعت..أرسلتها تتبع أخبارك .. فخفت أن تتبعتك أنا أن ينفضح أمري، وها قد حبكت الأقدار لترجع إلى صدري، وأنا على انتظار لتحقيق البشارة الكبرى.

وفي غمرة المناجاة والمناغاة بين الأم ورضيعها يأتي من هناك صوت حاد يقطع دفء اللقاء بحدته.

هو صوت الخادمة يسأل الام : هل رضع الوليد؟! هل قبل لبنك؟!

ترد الأم على السؤال اليائس بنبرة كلها دفء وتفاؤل وانشراح، نعم قبل لبني ورضع مني وها هو هانئ على أذرعي ..

كانت إجابة الأم بشارة خير لكل نساء القصر اللاتي تعلقت قلوبهن بالوليد وأشفقن عليه من الهلاك .. ولم لا وقد تعلق قلب ملكة القصر به.. وأحبت الاحتفاظ به لعله يعوضها عما أصابها من نقص الولد..

مدت الخادمة يديها لتأخذ الرضيع من صدر أمه وتعطيه للملكة..

هاته...واستعدي للمكث معنا في القصر لإرضاع الوليد..

ردت الأم في لهفة لا ..لا أستطيع أن أتركه.. ولا أستطيع المكوث في القصر...

الوصيفه: ولم؟!

الأم : معي أطفال صغار كثر..وزوجي رجل مريض وحيد لا أحد يقوم على خدمته غيري..ولا يصح مكوثهم في القصر، أما إذا اصطحبته معي فسوف أربيه مع أبنائي يلعب ويلهو معهم، ويحفظه زوجي مثل أبنائه .

الوصيفه: انتظري أسأل سيدت القصر.

انتظرت الأم في ثقة وهدوء يوشيان بيقينها في تنفيذ الوعد.

رجعت الوصيفة تعلو وجهها ابتسامة الرضا والقبول أعطت البشارة بالقبول، وأوصتها بالحفاظ على الصبي وأوصت لها بمال

(٣)

وزاد...وأوصتها بإحضار الوليد للملكه كل حين لتراه وتشبع منه حتى إذا تم فطامه تربى في القصر تربية الملوك والأمراء.

رجعت الأم تحمل الوليد تناغيه وتناجيه، عندما افتقدتك افتقدت كل شئ وها أنا وجدتك فوجدت كل شئ.....

سترضع من ثديي وتنام على صدري وتشبع من حناني وتلعب مع اخوتك...وتحظى برعاية أبيك...وستتربى تربية الأمراء...وقد أخذت صك الأمان والحياة وها تنتظر أن تكون من المرسلين..

رجعت الأم تحمل وليدها وقد أدارت إلى القصر ظهرها وألقت بنظرات مبتسمة إلى اليم وهمهمت إلى وليدها :ها هو اليم قد نجاك الله به اليوم، وسيكون سبب نجاتك بالغد، وسيغرق الله فيه فرعون فيكون فيه هلاكه.....فكم من فرعون علا في الأرض وتجبر فقسمه الله وأغرقه.

لاتخف

(١)

الابن. رافقتني زوجتي في الصحراء لا تخاف الظلام فمن الله علينا بالنور التام فقربني وناجاني واطلعني على نوره فكان نورًا على نور، فحلت بركة نوره في المكان ؛ فأمرني بخلع نعلي فخلعت، ومن فيض كرمه نهلت، ورأيت من آياته وقوته، فبه استقويت، وشمخت روحي وقوي جسمي واشتد عزمي واستعد للصمود روحي وبدني.أخذت آياته الشديدة-حتى على نظري- ومشيت في طريقي سائرًا إلى المتغطرس . ورافقتني زوجتي ليلاً ونهارًا في الضوء والظلام متحملة برد الليل وحر النهار.

الام. وكيف واجهت ذاك المتكبر؟!

دعوته الدعوة بالرفق واللين فكذب وأبى.ليس على ذلك اقتصر بل جمع جنوده وسحرته واستكبر فاستقوى بقوته فاستقويت بربي فآذرني بأخي.

الأم. أخوك؟!

نعم يا أماه. أخي أرسله معي ليقوي من عزمي وليشتد به عزمي.

الأم.وبعد؟

استمر المتكبر على تكذيبه فقتل من آمن معنا ممن استبان لهم الحق، فتواضعوا وآمنوا في التو فنالوا الشهادة في سبيل الحق والايمان... إرتقوا في الشهداء ورحلوا مع الأوفياء بعدما جادوا بالروح والجسد في سبيل الخالق.

(٢)

عاد الظالم الى سنته في القتل فقد ذبح الولدان واستحيا النساء .

ولم ترجعه الدعوات المتكررة عن ظلمه وعن شركه بالله بل امتد ظلمه لقتل كل من آمن حتى قتل النساء وعذب أطفالهن أمامهن بالحرق والتنكيل، فلم يتراجعن عن إيمانهن حتي لو حرق أولادهن أمامهن ولدا ولدا، فلم يتراجعن ولم يتزحزحن عن موقفهن وعن إيمانهن بالله الأحد.

الأم. أحرق الأطفال أيضا ولم يتب عن قتلهم ؟! قاتله الله منعدم الرحمة والإيمان. أكانت الأم ترى ابنها حريقًا وذبيحًا؟!

الإبن : أتذكرين حين كان يقتل الولدان خوفا على عرشه؟!

الأم. وكيف لي أن أنسى؟!

الإبن . أتذكرين النهر الذي ألقيتني فيه؟!

الأم تبتسم نعم ذاكرة له فقد كان سبب نجاتك صغيرا.

الإبن .وقد جعله الله سبب نجاتي وهلاكه. بعدما فرقه الله لي وأغرقه فيه.. نجاني وأصحابي وأهلكه وجنوده...من بعد ما حاربني وأرهبني.

الأم. أنت وأخاك؟! أحفتما؟!

أمرني ربي بالا أخاف وقال لنا"لا تخافا" فرزقنا معيته ووهبنا آياته الآيات تلو الآيات ...لم تجد الآيات معه شيئًا وأبى إلا الرفض والإرهاب للمؤمنين فأراد أن يشعلها حربًا فأطفئها الله بماء النهر فكانت لنا نجاة... وله هلاكًا وخذيًا.

وهذه بشارتك يا أمي أتذكرين؟!

الام. نعم أذكر إنها بشارة ربي حين قال"إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين.

(٣)

أخفت؟!

نعم خفت.وكيف لا أخاف؟! كيف لا أخاف ممن يذبح الولدان فتختلط دماؤهم بلبن الرضاعة؟!

لم تكن إجابة الابن على سؤال أمه شافية عن تعجبها لخوفه من عدوه، فاستمرت في أسئلتها وتعجبها.

أخفت؟!

الإبن :نعم خفت منهم وقد جمعوا كل قدرتهم في إخافتي وإخافة أهلي وناسي....ذبح ...قتل. ...تعذيب.......تعبيد وإذلال واستحياء للنساء .

الأم تزداد حيرة ودهشة فترجع تسأل ولدها .

أخفت وقد أتيت من الآيات؟!

الإبـن :يـا أمـاه لا تتعجبـين مـن أمـري ولا تلـومين فقـد جمعـوا السـحرة واصطفوا لتكذيب الآيات.

الام:وهل حقا كما يقولون انك..هربت؟!

الإبن. لا .لا يا أماه لم أهرب.ولكن فررت بديني؛ فقد كادوا يقتلونني ولم أجن على أحد.

الأم. بل قالوا أنك قتلت منهم رجلاً. فهل كنت ظالما.

الإبن . لا لم اك ظالما ولم أك جبارا في الارض...بل وكزته فكانـت. فـي الوكزة أجلـه.فاتهموني بقتلـه وأصـروا علـى قتلي.فخفت أن يقتلـون؛ فخرجـت من المدينة خائفا.

الأم. أخائفا تخرج؟!

الإبـن. نعـم خائفـا خرجـت . خرجـت بعـدما نصـحني أحـد المخلصـين بالخروج.أنا يا أماه لم أفر بعمري ولـم أفر حفاظـا علـى حيـاتي. .بـل حملـت ديني بين أضلعي وكانت رسالتي بين عيني فعلت أن لن يفلح القوم في قتلي.

خرجت هائما على وجهي حتى ساقني ربي الى أهل بلدة طيبـة. فوجـدت من يحتاج الى مساعدتي.

(٤)

الأم. تتعجب. كيف؟!

نعم يا أمي. .وجدت أغصـانًا طريـة تحتـاج إلـى من يقويهـا وأنفسًـا بريئـة تنتظـر مـن مـن يزكيهـا وأبـدانًا غضـة تريـد مـن يحمـل عنهـا...رعـي ...وسقيا...وحمل...فسقيت لهم وطلبت من ربـي الأجـر ..فشـكرتني أنفسـهم وأثنت. علي أرواحهم من قبل ألسنتهم.

فوصفوني بقوة الجسد وسلامة النفس وأمانـة الصـدر، فاستعملني أبـوهم وزوجني أحداهما؛ فكنت صهره وولده وخادمه ومعينه؛ فكان لي نعم الصـهر المعين والأب.بعدما كان لهما نعم المربي والمؤدب.

قد أجزل لي العطاء فوعدته بالوفاء؛ فأعطاني من فيض كرمه وأمني في بلدته حتى اشتد عودي وقويت عزيمتي وكثر مالي وأهلي.فأخذت زوجتي..

الأم تقاطعه فرحه...وهل زوجك ابنته؟!

نعم يا أماه. فقد كانت لي -من بعدك-نعم النساء ...نعم الزوجة ونعم العشير ونعم الصاحب في السفر ونعم المعين...رافقني في صحراء جرداء فكانت في صبرها كالناقة الشامخة قوية في مشيتها متحسبة في كل أمورها لاتخاف الظلام حتى منّ الله علينا بالنور التام.

لا تحزني

هي مريم العذراء المتبتلة البتول ابنة عمران من ذرية داود عليهما السلام، تمنتها أمها حين رأت عصفورًا يطعم صغيره ؛ فحن قلبها للولد، واشتاقت عاطفتها للأمومة.

تطلبت أمها الذرية وبعدما منَّ الله تعالى عليها بجنين في بطنها سجد قلبها شكرا لله تعالى واتجه عقلها وقلبها ووجدانها إلى أن تنذر هذا الولد متعبدا لخالقه سبحانه ومتحررا من كل رغبات الدنيا وشهوات الحياة.

لم تتجه عاطفة الأمومة إلى تدليل الولد المنتظر أو التمتع به، بل اتجهت إلى تعبيده لله وتحريره من شهوات الدنيا، حتى الاسم الذي اختارته الأم لوليدها إنما يدل على كل معنى للعبودية الصادقة؛ فهنيئا لك يا مريم عقل أمك الراجح وقلبها المتعلق بالله.

كان هذا الأصل الطيب والأرض الطيبة المتمثلة في إمرأة عمران سببين رئيسين في وقوف مريم على أول طريق الاصطفاء؛ فتقبل الله مريم قبولاً حسناً في السماء وأنبتها نباتا حسنا في الأرض وكفلها أشرف من في الأرض حين ذاك... .

كانت إمرأة عمران تظن ككثير من النساء أن ما تحمله في بطنها ذكرا - ربما كان ذلك لرغبة أو لفطرة خلقن عليها، لكنها رأتها عند ولادتها أنثى فظنت أن أنوثتها ستمنعها مما رتبته لها من أمر التنسك.......

لم يسر لعلم إمرأة عمران أنما خلقت مريم لتتحمل مسؤلية وتحمل معجزة لا يأتي بها إلا الإناث.

تقبلت أم مريم مولودتها بسعادة لم تنسها وعدها الذي وعدت؛ فلفت مولودها في خرقه وأهدته للأحبار......هكذا كان التوافق بين العقل والقلب الواجب الديني الذي لم يتعارض مع عاطفة الأمومة فلا احتضان أمومة ولا رهبة من مشقة العبادة ...

ومع كون العام الذي ولدت فيه مريم عام جدب، إلا أن الله قد رزقها؛ فأحبها النساك وتساهم الصالحون المقتدرون على كفالتها وأنعم عليها إذ تكفل بها زكريا عليه السلام، وكان أصلح أهل زمانه.

هكذا باعدت الأقدار بين مريم وبين مخالطة عوام الناس وعموم البشر؛ فاقتصرت حياتها على الصفوة المختارة من الناس فلا هموم للدنيا ولا لهو ولا ضجيج حياة ولا سفساف الأمور.....

ومن أشرف من زكريا ليتكفل بها ؟!

يدخل زكريا على ربيبته مريم فيجد عندها فاكهة الصيف والشتاء

فمن إذا المتكفل الحقيقي بمريم؟!

لم تك كفالة الله لمريم كفالة مادية أو بدنية فحسب بل كانت كفالة روحية وتربية ايمانية ومؤازرة نفسية في المقام الأول .

يسر الله تعالى أمر العبادت والتفرغ لها وهيئ لها صحبة إيمانية في أعلى مستويات الهمة فأمرها بكثرة الركوع والسجود وأمرها بالقنوت.

«يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين»

هكذا ذكر اسم مريم من قبل رب العالمين- سبحانه -في قرآن كريم يتلوه الذاكرون .

انخرطت مريم في العبادة فكأنها تهئ نفسها وقلبها بل وبدنها أيضا لأمر عظيم .

ذاع صيت مريم الراهبة والناسكة وشهد لها الجميع بالتقوى والورع والحياء وهذا من نتاج عبادات قلبية وبدنية ومخالطة الصالحين....

وفي ساعة هي الغريبة على قلب مريم وعقلها أيضاً جاءها جبريل في شكل إنسان تقي نقي ليحمل لها بشارة من الله لها باصطفائه سبحانه لها لتحمل معجزة عظيمة، معجزة لم ولن تتكرر على وجه الأرض.

جبريل : يا مريم إن الله يبشرك.

مريم : بم يبشر ربي؟!

جبريل: يبشرك بغلام.

مريم : من أنت؟! أعوذ بالرحمن منك إن كنت من المتقين.

جبريل:لا تحزني ولا تخافي إنما أنا رسول من ربك سيهبك الله غلاما زكيا.

مريم : كيف يكون لي ولد ولم يمسسني بشر بزواج أو غيره؟!

جبريل : كذلك أراد ربك هو عليه هين .. وقد خلقنا جميعا ولم نك شيئا.

استعاذت مريم بالرحمن من أمر هذا الملك فأخذ الملك يبث فيها روح الطمأنينة والثبات والرضا بأمر الله .

فهمت مريم أنه سيكون أمر حملها بالغلام هو من باب التشريف لها بمعجزة كبيرة لا من قبيل العقوبة والبلاء الشديد، لكن هاهي مريم ككل أنثى تحمل هم مواجهة البشر وخاصة في أمر شديد كهذا عابدة لم يسبق لها الزواج تفاجئ قومها بحمل في بطنها...

وكأن الأقدار تقول لها قضي الأمر فلا تخافي ولا تحزني ولا تهتمي بأحد فسنمنحك ولدا بارا بك مبرأ من العيوب وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين لرب العالمين .

نفخ الملك في درع مريم فحملت بالنبي.

كأن الأمر شق قلب مريم إلا أنها أمرت بالصمت فلن يكون حديثها مع الناس ودفاعها عن نفسها أمرًا هينًا أو مفيدًا .

وكيف تؤمر مريم بالصمت في وقت تحتاج فيه للدفاع عن نفسها لاثبات براءتها ونزاهة موقفها ؟! فلربما كان ذلك لزيادة محنتها أو ربما كان للتخفيف عنها.

تقبلت مريم الأمر بالصبر والصمت مع الناس فكافاءها الله بمعجزة جديدة..

إن لحظات الولادة هي أصعب لحظات عند عموم النساء ينفصل فيها بدن الجنين عن بدن الأم وروحه عن روحها. .....تحتاج المرأة لمرأة مثلها تقف بجانبها تشد أزرها وتهون عليها وتبث فيها روح البشر والاستبشار بمولود يفرح به أبوه ويهش له قومه.

أما أن تضع مولودها بمفردها ولا تعلم له أبا ينسب إليه فإنهما لعمري أمران يزيدان الموقف صعوبة.

لم يكل الخالق أمر مريم للبشر وأيضا لم يتركها وحدها بل أرشدها أن تتكئ لمخلوق أقوى منها وهى النخلة أول ثمر بلا بذرة.هي عمتنا

كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. ...فقد خلقت من الطين الذي خلق منه آدم.

ربما كان في ذلك إشارة لمريم والتفاتة الى قدرة الله في الخلق من العدم......لن يفوت مريم أن تستمد قوتها وشموخها من النخل الباسقات...الشامخات...ولن يفوتها أن تتغذى على ثمارها......ليس هذا فحسب بل أجرى الله لها نهرا سريا لتشرب منه الماء.

يالها من معجزات تلتف بمعجزات.

وبعقل وقلب إمرأة أقول أن هذه هي أصعب اللحظات على قلب مريم حينما وضعت مولودًا لا تدري إلى من تنسبه......

تعلم أن الله على كل شيء قدير لكن من أين لقومها وأهلها أن يستوعبوا تلك المعجزة...أو يؤمن أهل المعجزات بمعجزة زمانهم؟!

حتى النساك صعب عليهم أدراك المعجزة في وقتها.

يوسف النجار: يا مريم أيكون زرع بلا زارع؟!

مريم:نعم أول زرع خلقه الله .

النجار: أو يكون ثمر بلا بذر؟!

مريم:نعم.أول ثمر خلقه الله .

النجار:أو بكون مولود بلا أب؟!

مريم:نعم.أول إنسان خلقه الله .

هكذا زال التساؤل وانتهت الحيرة من قلب يوسف النجار الراهب المتبتل ليتولى مسؤليته الجديدة في مؤازرة مريم مع مولودها الصغير.

«وكأنما يقول لصغيرها لاتحزن إن الله معنا».

هكذا معية الله للمجاهدين.

جعلت شدة الموقف مريم تستجيب لأمر الله ففي الاستجابة راحة لها من عناء الجدال ومشقة الحوار....فحملت المولود بشجاعة قلب ورباطة جأش واجهت به قومها فتعجبوا ولم يتهموها بسوء لكن لابد لهم من التعجب والتساؤل عن مصدر هذا الطفل فأشارت إليه ليسألوه.

فتعجب القوم من مطلبها وزاد تعجبهم من رد المولود وتكلمه في المهد

لم يكن حديث المولود لتبرئة الام بل أدار دفة الحوار إلى موضوع أهم وهو المغزى المطلوب من وراء هذه المعجزة ألا وهو الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ...وهذا هو المطلوب من وراء المعجزة التي أرسلها الله لقوم لا يؤمنون إلا بالماديات وقد أنستهم أنفسهم أن هناك خالقًا قديرًا قادرًا على الخلق دون أسباب والرزق دون أسباب..

ويقول للشئ كن فيكون.

مضت مريم تحمل وليدها، يسألونها فتشير إليه فيجيب بدعوة الناس أخلاق التوحيد وعبادة الله وحده والإيمان بقدرته .

قطعت مريم حياتها مع ولدها تحمل هم الدعوة إلى الله وتعليم الناس أخلاق التوحيد بؤازرها الله بكثير من المعجزات التي تتطلبها مشقة المهمة متناسية كونها أنثى مترفعة عن كونها خلقت لتأكل وتتمتع وتعيش في كنف زوج يحميها ويدللها وأطفال تلهو معهم أو تلهو بهم

مضت واحتسبت فنالت الاصطفاء على نساء الدنيا والآخرة .

رضي الله عنها وأرضاها في العالمين.

فهرس الكتاب